جامعة البصرة
كلية الفنون الجميلة
قسم الفنون التشكيلية/ الدراسات العليا
الماجستير

المحاضرة الرابعة

فن العمارة لغة للتخاطب

الدراسات العليا-الماجستير
2021
د. عقيل صالح آل شاروح

فن العمارة لغة للتخاطب

أولاً- مفهوم بالعمارة

هي نوع من الانضباط أو الفن المسؤول عن تخطيط وتصميم وتشييد المباني. من هذا المفهوم يصح القول إن العمارة تؤثر على الوجود البشري بشكل كبير، من خلال تكريس نفسها لبناء المنازل والأماكن حيث تتطور بشكل يومي. وعند تصنيفها ضمن كفن، فمن الضروري الإشارة إلى أنه يجب أيضا اعتبار الهندسة المعمارية ذات غرض جمالي ومعبر.

فكما ذكرنا في المحاضرة الأولى كيف كانت البداية، حين عاش الجنس البشري في مساحات توفرها الطبيعة نفسها كالكهوف في المناطق الجبلية، ثم دفعت التيارات المهاجرة الحاجة إلى الإنشاءات (حفر وخنادق) انتقالية، ومن ثم إمكانية الاستقرار في أماكن مواتية في فترة ثانية. بالنظر إلى اختيار المناطق ذات الموارد الوفيرة (بشكل عام بالقرب من مجاري المياه)، وجد الإنسان نفسه في حاجة إلى إنشاء منازل دائمة للتخلي عن نمط الحياة البدوية، لذا كانت بداية العمارة في ذلك الوقت كضرورة، مستمدة من التغيير في طريقة المعيشة. ومع النمو التدريجي للثقافة حاول الإنسان إنشاء المسكن البسيط إلى فن حقيقي، والذي تضمن ليس فقط إنشاء مساحات مع بداية تعرفه علة معنى الحياة الأسرية، وأيضا حاجته إلى معابد وأماكن للتجارة والحصون وجدران الحماية.

كانت ولا تزال العمارة توصف بأنها أحد الفنون الهندسية القديمة التي عرفها الإنسان منذُ حاجته لبناء مأوى له، فراح فن العمارة يعرف بأنه الفن الذي يهتم بتطبيق مجموعة من القواعد الرياضية التي تستخدم القياسات لرسم الهيكل التخطيطي لبناء المباني، والمعالم الحضارية الخاصة بمكان أو بمدينة ما، وعادةً يهتم فن العمارة بعكس طبيعة الثقافة العامة والتراث السائد في المنطقة، وقد يحتوي على مجموعة من الرموز أو المنحوتات الفنية التي تظل من الشواهد على كون العمارة في أساسها هي فن تشكيلي تم تقنينية وفق قوانين وضوابط تحكم كل عنصر فيها. فقد عمل الإنسان على تقليد الحيوانات في بنائها للأعشاش والقباب أو الأنفاق تحت الأرض، لكنه فاق عليها في تسجيل صوته ومعنى كلامه، من خلال الكتابة التي تمثل النقلة الأكبر في

التأريخ البشري. وهكذا أدرك ما هو تطبيقي في الحياة البرية، ولم تحل رموز لغة الحيوان والطير، لكننا نعتقد أن تطورات فيها لم تحدث على منهج التقليد الموروث كما حال بيوت النحل، لكن الإنسان بدأ بعشش القش وصولا اليوم الى العمارات وناطحات السحاب. يقول **دومينك شوفالي**:(**اللّغة تمثل ذاكرة تمنح الفرد عناصر الوعي للتعبير عن هويته قياساً على الجماعة التي يتحرك داخلها وعلى إمكانية التسامي عن هذا الحد الاجتماعي**) وهو الأمر عينه الذي ينطبق على فن العمارة.

ولمحاولة إدراك مفهوم العمارة نلجأ الى القراءات الفكرية النقدية والفلسفية التي تبحث في الكشف عن كون فن العمارة يشابه اللغة من حيث كونها (**بيوت = حافظة = ذاكرة**). فيصف الفيلسوف الألماني **هايدغر** اللغة بأنها:(**بيت الوجود والذين يفكرون بالكلمات ويخرجونها هم حراس ذلك البيت**). ورغم أن البيت اللغوي الذي تحدث عنه **هايدغر** يتسم بالتجريد؛ فإن الإنسان في الحقيقة لا يدرك قيمته إلا حين يفقده أي يوجد في (العراء)، والمقصود بالعراء هنا الثقافي والحضاري والفكري الذي يذوب بسببه الإنسان، وتُطمسُ هويتُه وثقافتُه، وتُجتث جذورُه، ويضيع أصله.

ثانياً- فن العمارة كلغة للتخاطب

كانت الحاجة دوماً الى فهم نظري فلسفي وعلمي معمق لفن العمارة، لإدراك مهمته التصميمية من جهة والقيمة الحسية للمنجز الفني المعماري وذروته الإبداعية. وهنا نضرب المثل بمنهجية اللّغة التي تقوم على مستويين عام وذاتي وتنعكس من منهجيتين للفكر إحداها أفكار نفكر معها مثل قواعد وصيغة اللّغة.. الخ. ففن العمارة مثله مثل اللغة يضم معانٍ متعددة هي: (ما نفكر فيه/ ما نعنيه/ ما نقوله) لكي يستوعبها المقابل(المتلقي). وهذا ما يحصل في فن العمارة، فهو يختزن في العقل أفكار نفكر معها مثلها المعرفة للأشكال الهندسية بأبعادها الثلاث مع معرفة كيف ننسب ونهيئ الفراغ والشكل للاستخدام البشري. فالمصمم الفنان بذلك يشبه شخص يحاول تعلم القراءة والكتابة والقواعد، حيث ينبغي عليه أولاً أن يفهم الأبجدية قبل أن يتمكن من تكوين الكلمات ومن تطوير مفرداته، كما ينبغي علية أن يفهم قواعد علم النحو والصرف وتركيب العبارات قبل أن يتمكن من إنشاء الجمل، وينبغي علية أن يفهم مبادئ الإنشاء قبل أن يتمكن من كتابة النصوص

والمقالات والروايات...الخ. وإذا تمكن الشخص من فهم هذه العناصر فإنه يستطيع أن يكتب ما يشاء. وان حدث وغاب ذلك عن مخيلتنا فمن الصعب جدا البدء في العملية التصميمية التي تبقى هبة ملكة الخيال. وهكذا فإن ما نكسبه من التعليم النظري من خلال معرفة لغة فن التصميم وقواعدها ومفرداتها وطرائقها وأنواعها في الأقسام التخصصية وكيف نركب الشكل في التصميمات من أجل أن يتلاءم مع الاستخدام أو الهدف البشري. وهذه الحاجة للمعرفة النظرية تحاكي اللّغة في (الأفكار التي نفكر بها)، التي تجعلنا نولد الكلام. غير أن هذه المعرفة (معرفة التوليد) ليست وحدها التي نحتاجها في التصميم، الذي يبقى عملية معقدة تعكس الوعي والبيئتين المؤثرتين والسليقة ومكامن النفس العميقة.

وتشكل عملية التخاطب أهم خاصية للمعالجات الفكرية الإرادية الواعية لدينا والتي تميزنا عن باقي الكائنات الحية والتي تشكلت نتيجة استعمالنا للغة وتعتمد السببية والمنطق وهما موجودان في صلب الفكر المعماري. ويعتمد التخاطب على تراتبية ومسار للتفكير والمعالجة من ضمن المدخلات الكثيرة التي تعتمدها آلية التفكير المنطقي والتي تتطلب:

١- تجنب تشتيت الانتباه عند ملاحظة المثيرات الجديدة.

٢- التركيز على تحديد الأهم منها لمعالجته حصرا والتغاضي عن البقية.

٣- الاستمرار في ذلك المسار حتى نصل إلى نتيجة أو إستجداد أمر ما هام يستدعي قطع المعالجة الجارية والالتفات لمعالجة هذا الجديد.

٤- تسبيق المنهج على حيثيات المنتج. فالتفكير السببي والمنطقي والرياضي تعتمد المعالجة التسلسلية.

لذلك فإن المصمم المعماري مسّير في خط متسلسل من الأفكار، مثلما هي سلسلة أفكار المتكلم بغرض الوصول الى القصد أو الفحوى أو كما نسميه (رباط الكلام). لإن المعالجات الفكرية الإرادية الواعية لدينا تكون معالجة متسلسلة، وفي نفس الوقت تجري لدينا معالجة بالتوازي غير واعية. ويتم إرسال نتائج هذه المعالجة إلى معالج الوعي فتشارك في تحديد الاستجابة. فالشيء المهم أن المقارنة اللازمة لإجراء القياس والحكم يلزمها معالجة بالتوازي.

ولكي تتم مقارنة مجموعة مدخلات أو مؤثرات أو أفكار مع بعضها البعض يجب إدخالها معاً لمعالجتها دفعة واحدة. والتسلسلي يمتاز بدقته العالية ووضوحه (لأنه واعي) أكثر من التفكير المتوازي الحدسي. لذلك يستخدم الدماغ المعالجة التسلسلية والمعالجة المتوازية الحدسية في المخيخ في نفس الوقت، وهما جوهر المنهج الذهني للغة والعمارة على حد سواء. والمخيخ يستطيع معالجة أعقد الأوضاع الحركية دفعة واحدة مثل المشي مع المحافظة على التوازن أو ركوب الدراجة مثلا. وعندما يتدخل الوعي تنخفض قدرات المخيخ ويطفق المعالجة بمسار واحد لحركات الجسم، وعندها يصعب تنفيذ الحركات المتزامنة في نفس الوقت ويختل نظام أداء العمل. إن المعالجة الفكرية التسلسلية تعتمد تراتبية زمنية، كما هو في المنتج اللغوي الأدبي كالقصص والروايات والسير. والتسلسل السببي يقتفي الأسباب والنتائج والترابطات السببية أو المنطقية، كما في الرياضيات والهندسة المجردة، التي تبنى على (الفرض – الطلب – البرهان) كمثال. وعمل دماغنا يعتمد على المشاركة بين التفكير التسلسلي والتفكير التفرعي أو المتوازي وهو يظهر على شكل حدس وإلهام، لإدارة وتنظيم أمور حياتنا ومنها المنجز المعماري. وهناك اختلافات بيننا من ناحية اعتمادنا عل التفكير التسلسلي أو التفكير التفرعي. فبعضنا يركز على التفكير التسلسلي مثلا، وعادة ما يكون متفوق بالرياضيات والمنطق. والبعض الآخر يركز على التفكير التفرعي وعادة يكون متفوق بالشعر والأدب والموسيقى والرسم ومخيلة خصبة وهو الأنجح في اللّغة والعمارة على حد سواء، وثمة من يحوي الإثنين معا (نادر او قليل الحدوث). وهنا يمكن أن نأخذ بالاعتبار في السياقات التربوية والتأهيلية، وفي العموم فإن أصحاب النجاحات في اللّغة يمكن أن ينجحوا في العمارة.